نداء

شغف الأستاذ « عنتر المحلاوى » منذ فجر حياته بنزعة آثرها على غيرها من دوافع ورغاب ، ما فتئت على الرغم من اشتداد عوده ، وتكامل نمائه ، تعنف به وتلح عليه فى مثابرة وإصرار كأنما هى من نفسه شعلة دائمة التجدد موصولة لاشتعال.

لقد شب صاحبنا طلاعاً إلى الأسفار ، وإن لم يكن قدر له بعد ، أن يغترب عن موطنه الأصيل مسيرة يوم أو بعض يوم ، فهو ما زال يمنى النفس كسابق عهده دون أن يحقق فى الأسفار شيئاً من آماله الرحاب .

إنك إن تفقدت باطن وجدانه استبطنت ذلك الشعور الفوار ، وليد ما غرسه الأستاذ « عبد الغنى السبكى » فى نفسه الفتية من رغاب ، حين كان صاحبنا يتلقى عنه درس تقويم البلدان ، عصر الخميس من كل أسبوع ، فى مدرسة بالسيوفية لا يخطر الآن اسمها لى ببال .

كان الأستاذ « السبكى » فوق كونه أستاذاً للتاريخ ،

رجل فن وفكر ، أديباً ملهماً ، وفناناً ذكيًّا ، يميط عن التاريخ الغوامض والمعميات ، ويجلوه لك فى ألواح أخاذة ، وكأن حوادثه قطع الصلصال تشابكت بين أنامله ، يلينها ويشكلها ويصبها فى قوالب فنية مبدعة تفتنك من روعة وسمو وجلال .

وما ينساب صوته فى الفصل يترسل على سمعك فى غنته الصافية ، حتى يبعث على مطرح وجدانك ، المدائن التاريخية من سباتها العميق تنفض عنها شملة التقادم والنسيان ، فإذا الذى كان رفاتاً يصبح فى طرفة عين كائناً حيًّا متكامل النضج ، فلا تعتم أن تتمثل لك الأطلال والدمن ، قصوراً يغمرها ضياء وتعمها ضجة وحركة .

ولا يفوتك وأنت تستمع إليه ، أن تعاود العيش مع تلك الحشود الجامعة ، تشركهم الحياة بما حوته من حلو ومر ، ولا يسعك إلا أن تحد السمع ، وأنت بحديثه موصول أنيس .

كذلك كان صاحبنا كلما ضمه الدرس ، فما تنقضى الحصة ، حتى يؤوب إلى داره يحتبس فى حجرته ، ثم يخرج إلى المستشرف ، يتكئ بساعديه على حافته ، وقد تملكه سهوم وهو يسترجع الدرس مع بواكير المساء وهدأة الليل ، وكأن على عينيه منظاراً مكبراً يقرب له البعيد ويدنى ما يهفو إليه ، أو كأن

بإصبعه خاتم سليمان وإذا هو يلقى نفسه متربعاً على بساط الريح ، يسبح فى أجواز الفضاء ، شرقاً وغرباً ، دون أن يعوقه فى منطلقه زمان أو مكان .

فلا غرو إذن وقد أصبح صاحبنا رجلا متكامل البناء ، صلب العود ، أن يتهافت على مصورات الجغرافية ومصنفات التاريخ قديمها وحديثها يجمعها إليه كى يروى ظمأه من مائها النمير ، غير مقتصد فى مال وجهد وسعى .

إنه يعيش فى الحياة فرداً لا رفيق له إلا تلك المجلدات التى تحتل من مغناه الرشيق حجرات ثلاثاً .

يستقبل صاحبنا ضحوة كل يوم ، غائصاً فى أحشاء المكتبات ، يتخير وينتقى ، ناسياً نفسه ، مشغولا بصفحات المجلدات كعاشق متيَّم قد التحم والكتاب فى غزل صامت وديع .

وسرعان ما ذاع صيته بين أهل المكتبات فساروا يخطبون ودّه ويتنافسون فيه .

ويوماً اتفق لصاحبنا أن قصد حى الحسين فى جولة من جولات صيده اليومى ، فانخرط فى شارعه الممدود ، حيث تتزاحم على جانبه الشرقى المكتبات متراصة ، تبدى له كل منها حلاها وتسفر عن مفاتنها وتدعه مقسم النظر بينها فى حيرة وافتتان .

وأقبل صاحبنا على واجهات الحوانيت يتسكع أمامها فى تشوف وتعرف ، وأدت به خطاه الزاحفة ، إلى مكتبة الشيخ «أحمد المغربى» زعيم تجار الكتب لا فى حى الحسين فحسب ، بل فى مدينة المعز غير منازع ، فتوقف صاحبنا يجيل الطرف فيما حواه الحانوت من نوادر وألطاف .

فلما لمحه « الشيخ المغربى » مقبلا عليه انقطع عن تسابيحه واشرأب بعنقه المكتنز ، وكأنها عنق ثور صدف عن علوفته يرأرئ بعينيه ، وما عتم أن ثبت نظارته الصدئة المغبرة على أنفه ، وقد انبسطت أسارير وجهه فى إشراقة ، وانفرج فمه عن بسمة ملق ، يهدى إلى صاحبنا التحية رافعاً يديه إلى عمامته يسوى طياتها وهو يقول فى حماس :

أهلا . . . أهلا بالصديق الحبيب . . . صباحك صباح الندى ولا ريب . . . والله يا أستاذ إنك ابن حلال . . . رزقك يسعى بين يديك . . . عندى اليوم لك بشرى وأى بشرى . . . درة فريدة لا يفضلك فى اقتنائها آخر . . . حسبك أن تضيفها إلى دررك الغوالى . . . كتاب جامع عن الأندلس . . . موضوعك المفضل ... تجد فيه شعراً عذباً ونثراً بليغاً ... وتاريخاً عجيباً . . . وسيراً . . . وتراجم . . . وحتى السياسة لها شأن فيه

مرموق . . . خمسة عشر مجلداً . . . كل مجلد منها لؤلؤة نفيسة ما نظرتها عين من قبل .

وأخذ « الشيخ المغربى» ينشد جمله هذه وهو ينغم من صوته ويحد النظر فى صاحبه ، يتوضح بعين التاجر الدرب ، وقع النبأ فى نفسه ، فألقاه مشبوباً يستخفه الشوق ويهفو به الفضول .

على أن صاحبنا أخذ نفسه بالحزم ، وتماسك يقول مرسلاً ضحكة ناصلة ينشد بها ما يعتلج بين جنبيه :

الأمر يا شيخ المغاربة يتوقف على الثمن .

واستدار الشيخ دون أن يريم مكانه يعبث بين كومات عفراء من الكتب تسامقت خلفه ، وهو يغمغم :

الثمن أيسر مما تظن . . . انظر . . . تفرج . . . الوقت فيه متسع .

ومد يسراه إلى صاحبه بجزء من الكتاب الأندلسى المرموق ، يناوله ويمينه تضرب جلدته ضربات خفافاً أثارت حوله غلالة رقيقة من غبار ، وما لبث أن أخذه سعال ، فقال متحشرج الصوت محتقن العينين نافر الأوداج :

— هاك الدرة الثمينة . . . تصفحها ... تجدنى ولا غرو قد صدقتك القول فيما وصفت .

تناول صاحبنا الكتاب يقلبه فى دقة وعناية ثم رفع رأسه يقول والكتاب متثائب بين يديه :

ما ثمنه يا شيخ ؟

— ما تجود به أقبله . . . ليس بيننا مماكسة يا أخى .

— إن ابتغيت حقًّا إتمام الصفقة فعلىّ بالكلمة الفاصلة .

وتشابك الرجلان فى مماكسة عنيدة أطالت من وقفة صاحبنا ، وأخرجت « الشيخ المغربى » عن وقاره وتحشمه ، فخاض فى حديث متشعب ، يستنكر ما عرض عليه من ثمن ، مؤكداً قوله بالأيمان المغلظة أنه لو ارتضى إتمام البيع على هذا الثمن لكان ، وحق السماء ، مغبوناً جد مغبون .

واشتد الضيق بصاحبه وأعلى الثمن على كره منه ينهى بالحاجة الشيخ و يقطع حبل ثرثرته الحمقاء .

فجبهه « المغربى » بقوله ويداه بالكتاب مشغولتان تربطانه كأنه طفل يهدهده ويتلطف به :

صدق بالله ... إنها صفقة لى خاسرة ... لقد قبلت إعزازاً لمنزلتك عندى ... لغيرك ما فرطت فيه ولو بذل لى ضعف ما قدرت .

فشكره صاحبه وهو يتسلم الكتاب بأجزائه الخمسة عشر ، وانطلق بها فسيح الخطى يدف بجناحيه كالطائر وقد ظفر بصيده

يعجل به إلى عشه .

وتصرمت ليال .

وتوالت أيام .

وفجر يوم من أيام الصيف ، شوهد « عنتر المحلاوى » يبرز إلى المطار ، ويرتقى السلم إلى بطن الطائرة يأخذ مجلسه منشرح الصدر مشرق المحيا .

ودوت المحركات ، ودارت الطائرة دورة ، وثبت بعدها وثبة عالية رفعتها دفعة واحدة إلى أجواز الفضاء ، فانسابت فى طيرانها ، تغالب الريح فى جرأة وإصرار .

وانسرح صاحبنا فى تفكير ، يتحين ساعة يلتحم وأرض الأندلس الحبيب فى مصافحة جياشة ، ولقاء منشود .

كم من ليلة قضاها مسهداً بصحبة الكتاب الأندلسى ، تختلج فى نفسه شتى الأخيلة والأحاسيس .

شد ما تاقت نفسه إلى أن يستجلى ما هنالك من حضارة أينعت ، تتحدى أحداث الزمن وتصاريف الأيام .

ويدوى فى الطائرة صوت القائد يبين للراكبين ، أن الطائرة تحلق الآن فوق الهدف المأمول .

ويضطرب صاحبنا فى جلسته ، ويميل على طاق الطائرة يلقى

بأنظاره فى الفضاء، وكأنه أدلى بشص يتصيد به ضالته من أعماق الهواء.

وتطالعه الأندلس فى ثوب مفوف كغادة متأنقة تجتذبه من بهاء ورواء .

وتهبط الطائرة .

ويغادرها صاحبنا وثاب الخطى وكأنما هو نحلة ناشطة ، دائبة الحركة والدوران .

بيد أن غادة اليوم غير غادته الشرقية التى ألفها وأنس بها على مد الليالى وكر الأيام ، تسعده بسمرها الطلى ، وتشدو له شدوها الحنون .

ما للغادة اليوم تلوى لسانها ، تغمغم وتجمجم فى رطانة سقيمة لم يألفها لغة حديث بينهما من قبل ؟

أين هى من ذلك اللسان المستقيم الذى طالما أسكره بعذوبة تعبيره وترنيمة أنغامه ؟

ما للغادة نضت عنها ثيابها الفضفاضة يحليها وشى كوشى الربيع ، واكتست بديلاً عنها لبوساً أعجمياً ، وإن كان فى مظهره القشيب ، ما فتئ يحتفظ بفضلة ناصلة من طراز شرقى رشيق ، فالمغانى تتوضح لناظره على امتداد الطريق متحشمة تتستر خلف شملة من أسوار تحيط بها وتصونها كأنها أحراس

ينفذ منها هو فتحييه حديقة حالية ، تتوسطها فوارة مرمرية ينبجس منها الماء، وقد تحلقت عليها الأشجار والورود ، مختلفة الألوان والشكول ، وعلى جنبات الحديقة قبوات تهدى الخطى إلى الحجر والخدور .

رباه ! أتكون الطائرة قد سخرت منه وغررت به فأضلته السبيل؟

إن عينه حيرى بما تراه من آثار مطموسة المعالم حائلة اللون لا تلائم ما تمثله لها فى كتابه من عظمة وجلال .

لم يكن يدور فى خلده أن غادته التى صافته زمناً ستقدم له فى يومه كأساً غير التى نهل منها فأذكت روحه .

لقد غدت امرأة صلفة القلب ، جامدة الملامح ، وقد تأثلت على التراث الذى ورثته لم ترع إلاً ولا ذمة ، بل انبعثت تركل وتبطش فى طيش جنونى وكأنها إعصار خراب وتدمير .

وقاده تنقله إلى قرطبة الخالدة حاضرة الأمويين ، ودرة تاجهم الأغر .

ماذا ! ! إنها ما برحت على عهدها ، تردد من صدر مقرور ، أنفاس أمس الغارب ، كشيخ فان طحنته الأيام وهدت عزمه العلل ، فأمسك عن المضى ، ينكمش على تراثه يحافظ عليه ما أمكنه الحفاظ فى يأس وقنوط .

أيهرب من غادته ، ويقفل راجعاً إلى كتابه يحتمى عنده ويأنس به .

ولم تدم حيرته ، فقد حثه الدليل فى زيارة إلى المسجد . . . مسجد قرطبة التليد .

هرع يطلبه وقد استبشر باللقاء .

دخله مشبوب النفس نشوان الفؤاد .

وما كاد يلتقى بالمحراب حتى ألفاه حبيساً خلف نطاق من سياج وقضبان ، يطالعه من وراء محبسه ، متطامن الهامة ، ذليل القسمات ، على الرغم من طرائف النقوش التى تزين جبينه فى خطوط موشاة ، تارة تستقيم وأخرى تتشابك وتلتحم لتتنافر وتشط دون أن تفقد وحدتها الفنية الرائعة .

إيه أيها المحراب . . . إن صمتك أنسانى ما حملت من تحيات وأشواق أنثرها فى حضرتك آيات مودة وحب وإكبار .

إنها من أخدان لك فى قاهرة المعزّ ودت لو تم بينها وبينك تلاق واجتماع على صعيد موحد . . .

لماذا لا تسعى إليها ، تشهدهم تلك البردة الموشاة التى تنسدل على منكبيك تتحلى بها فى تألق وبهاء .

سوف يحتفون بك لا مرية ، وسوف يطيب لك إن أنت

قررت الرحيل المكث والمقام .

أراك تختلج اختلاجة تألم وضيق واستنكار .

إنى أراك ذليل الحال خلف السياج والقضبان .

أ أصبحت مجرد طرفة من طرف الفن تحج الجموع الحاشدة إليه مسلاة وملهاة ؟

فيم صمتك بحق السماء ؟

ألم يبق فيك بقية من حمية الشباب ؟

تكلم . . . هداك الله ورعاك .

وهنا مزقت سكون التناجى ، رنات ناقوس ، تشابكت بها ترنيمات أرغن ، تصاحبها ترتيلات وأناشيد ، فجمد صاحبنا فى وقفته ، وتملكته رعدة ، واضطربت شفتاه ، وغامت عيناه ، وعلى حين بغتة ، انبثق صوته يدوى بتكبيرة الصلاة ، فتناثرت الكلمات فى رحاب المسجد قوية الجرس ، وكأنها مع صدى صوته أصوات المصلين من أهل الأندلس فى عصور سوالف ، بعثت من مراقدها تردد فى إيقاع موحد : الله أكبر ، فما لبث صوته أن تعاظم وتضخم ، وإذا هو يخر راكعاً يتشبث بالسياج والقضبان الضاربة نطاقها حول المحراب ، يهزها فى عنف ، وكأنه يبغى أن يقتلعها ، يمهد للمحراب الحبيس سبيل تحرر وفكاك .